وقفة

السعادة في فلسفة أندري كونت سبونفيل

بقلم: يوسف هريمة (المغرب)

من منا مثلا لا يسعى لأن يكون سعيدا؟ أو على الأقل قد جرب كل الوصفات ليشعر بهذا الإحساس الذي ينطوي على الرضا والحب والحكمة؟ كان هذا اهتمام كل التجارب الفلسفية على مدار التاريخ الإنساني، فلربما نتذكر ما قالت الرواقية والأبيقورية في مسألة الخلاص الإنساني الذي هو في نهاية المطاف بحث عن الحياة الطيبة، التي هي في المحصلة حياة سعيدة. كذلك فعلت الأديان في شقها المسيحي وهي تخترق الفلسفة اليونانية وتحدث فيها شرخا كبيرا في مسألة الخلاص الإنساني.

نريد أن نتحدث عن قضية السعادة من وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي أندري كونت سبونفيل. وهو من الفلاسفة الفرنسيين، ينتمي إلى جيل ستينات القرن الماضي، ويفتخر بأنّه ينتمي إلى هذا الجيل. لكن المثير ليس فقط الانتماء إلى فترة تاريخية معينة، فهذا الأمر لا يعني شيئاً بالنسبة للمتتبّع أو القارئ. وإنّما المثير هو ما يميّز هذه الحقبة التّاريخية في فرنسا، وانعكاساتها أيضا على بقية العالم، ونحن جزءٌ منه. فالطّابع المميّز لهذه الفترة هو عدم الاهتمام بالأخلاق، أو لِنقُل لم تكن الأخلاق هي الجزء الأصيل من تفكير الشّباب العالمي في تلك الحقبة، حيث كان الشّعار الملازم لهم هو:" المنع ممنوع " و" لنعش دونما إبطاء لنستمتع دونما هوادة". هذا الابتعاد أو لنقُل النّفور من كلّ ما هو أخلاقي كان نتيجة طبيعية لإيديولوجية سياسية سادت العالم حينذاك مفادها أنّ الكلّ سياسيٌّ، بمعنى أنّ كلّ تفكير الشّباب وقتذاك كان منصبّاً على التّفكير السّياسي، فهو المبتدأ وهو المنتهى، حتى أنّ البعض كان يرى في التّفكير السّياسي ضرورة أخلاقية، وربّما هي الأخلاق الوحيدة المعترف بها حينذاك.

لماذا انشغل هذا الفيلسوف بهذه القضية وحظيت باهتمام واسع من كتاباته المثيرة؟. فهذا الحضور المركزي لتيمة السعادة لم يكن إلا أحد المواضيع التي حفلت بها كتابة هذا الفيلسوف خاصة أنه أيضا يركز على مواضيع أخرى كالأخلاق والسياسة.ويمكن تفسير هذا الحضور أيضا من زاوية أخرى وهي أن السعادة كتيمة وموضوع فلسفي لم يكن غائبا يوما عن الساحة الفكرية سواء قديما أو حديثا،وهذا ما يفسر حضوره القوي كمبحث وانشغال واهتمام. كيف ذلك؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال مثلما يرى سبونفيل بالعودة إلى تاريخ الفلسفة إذ نجد أن التفكير في السعادة والانشغال بها كموضوع أساسي يعتبر جزءا أصيلا من التقاليد التي درج عليها التفكير الفلسفي. وذلك لأن الفلسفة كما يعرف الجميع هي بحث وحب للحكمة، ومن الحكمة أن يبحث الإنسان عن حياة آمنة في وجود غير آمن. أي أن ما يحرك سبونفيل بشكل أساسي كان هو البحث عن كيفية استعمال العقل ليعيش الإنسان بشكل أفضل، لأن هدف الحكمة هو توفير إطار للسعادة، وهذا الأمر للأمانة يتقاسمه مع العديد من الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين خاصة الفيلسوف لوك فيري تحديدا من خلال كتابه مفارقات السعادة.

إن الذي يفيدنا هنا ونحن نتحدث عن كيفية مقاربة موضوع متشعب من وجهة نظر فيلسوف له تجربته، واطلاعه، ودراساته وأبحاثه هو أن جزءا من الاهتمام الذي حظيت به السعادة في مؤلفاته هو اهتمامه أيضا بمكوّنات التربية والتعليم والبيئة الاجتماعية، وهي عناصر جعلته يبني فكره بالمواد التي توفّرت أمامه، وفي حوار له يقول ان السعادة في الفلسفة والفكر الغربي عموماً تحضر كمرجعية بالنسبة له. لكنه لا ينكر أيضا اجتهاده في الاطلاع على عوالم أخرى، خصوصاً ثقافات الهند والصين واليابان، الشيء الذي ينقصنا جميعا سواء في المجتمعات الغربية، أو المجتمعات العربية. وهذا الأمر يفيد في نهاية الأمر بأن السعادة تحمل خصوصية كونيةً، فهي ليست مفهوماً غربياً بشكل حصري، على عكس مفاهيم أخرى عديدة خضعت لتاريخ الغرب وحده في تبلورها وتطوّرها.

السعادة هي المبتدأ وهي المنتهى. لهذا نجد لها الأثر الكبير في خطاباتنا بمختلف انتماءاتنا الفكرية والثقافية بدءا بالأديان التي تقدم أيضا مفهومها للحياة الطيبة وانتهاء بما يقدّم النظام الرأسمالي اليوم من وسائل ترفيه مع بروز مفهوم دولة الرفاه.

يمكننا هنا أن نطرح السؤال التالي: هل يمكننا القول ونحن نعيش عصر التكنولوجيا والتقدم على مستويات عديدة إنه يمكن لهذه التكنولوجيا أن تشعرنا أو تحقق لنا السعادة؟

يقترح علينا سبونفيل مثالا يتعلّق بالتكنولوجيا التي تمثّل بالنسبة للكثيرين مصدر وعد بالسعادة؛ والعيش حياة أطول، ورفاهية أكبر، إلى غير ذلك. تستطيع التكنولوجيا بالفعل أن تخلق السعادة. فحين نقول إنه بات من الممكن أن نحمِل في جهاز الكمبيوتر الشخصي كل الموسيقى التي نحبّها، فهذا يعني أن التكنولوجيا قادرة بالفعل على إنتاج السعادة، ولكن هذه السعادة لا تستطيع أن تكون كافية، فقد صارت الموسيقى في جهازي بالفعل، هذا ماذا يعني؟.

يعني أن الموسيقى دخلت في الوقت الذي تصير في حاسوبك بشكل أساسي في منظومة المتوفر أي ضمن الأشياء التي تتوفر عليها، والمشكلة هو أننا ككائنات نقع دوما تحت تأثير غير المتوفر، فغير المتوفر يحمل إغراءات أكبر، وبالتالي فما نحققه هنا يصبح غير مفرزٍ للسعادة.

إذن هذا يعطينا انطباعا بأن السعادة سرعان ما تخترقها فجوات كثيرة يتم تبديدها بين الفينة والأخرى، وبالتالي تصبح هنا السعادة مجرد وهم، والوهم هنا للأمانة ليس متعلقاً بالتكنولوجيا في حد ذاتها، ولا في نوع الموسيقي مثلا التي حملناها على حواسيبنا، وإنما في طبيعتنا البشرية. فالتكنولوجيا تساهم في السعادة ولكنها لا تكفي لتحقيقها، وبشكل عام لا يمكن تصوّر شيء يمكنه أن يحتوي على السعادة. إنها كما يراها سبونفيل مثل الحكمة وأشياء أخرى كثيرة، مثالية بالضرورة، أي أنها لا تكتمل. وربما قد تصبح السعادة في بعض الأحيان شيئا مخيبا للأمل، فكلما تحققت احتجنا إلى المزيد منها.

فهي فعل فردي حتى ونحن نتقاسمها مع آخرين يشبهوننا، فلا يمكن أن نتحدث عن وجود جماعات أو شعوب سعيدة، فهذا ضرب من الوهم الخالص لأن هذا يضعنا أمام مفترق صعب. وهو عدم وجود أمل في حين أن الأمل هو محرّك الفعل والتغيّر التاريخي، ولكي نرى الأمور بشكل أبسط وبعيداً عن التجريد، فهو محرّك قطاعات رئيسية في الحياة: السياسة مثلاً هل يمكن أن نتخيّلها دون خطاب باعث على الأمل؟ الأمل مثل الخوف، هما عنصران أساسيان في تركيبة العالم.

يرتبط أيضا موضوع السعادة بموضوع آخر في فلسفة سبونفيل وهو موضوع الحب، وهي تيمة أساسية أيضا في كتاباته ودراساته وحواراته.

يقسم سبونفيل الحب إلى ثلاثة أنواع رئيسية من الحب: Eros إيروس، وهو الحب المرتبط بالنقص، أي ذلك الذي يذهب لإشباع ما، وهذا التعريف مرتبط برؤية أفلاطون للحب. وهناك Philia فيليا: وهو نوع من الحب يؤدّي إلى الفرح المشترك، وهو مرتبط بفهم أرسطو وسبينوزا للحب. أما النوع الثالث فيسمى بـ Agapè، وهو الحب غير المكترث، حبٌ غير تواصلي، هدفه التضحية، ومثاله شخصية المسيح، ونجد فكرته عند سيمون فايل. النوع الأول هو الأكثر حدّة، أما الثاني فهو الأكثر انتشاراً وربما لذلك نكون أقلّ انتباهاً له، كما أنه الحب الأكثر تواصلاً في الزمن. أما الثالث فهو الأعلى درجة، ولكنه الأندر، بل لعله ضد الطبيعة البشرية، إنه شكل من الحب الذي لا يتمظهر إلا من خلال غيابه.

تنويه : نظرا لوفرة المادة المرسلة إلينا من العديد من الكتاب والشعراء والقراء، فإننا نستسمح الجميع في شيء من التأخير في النشر مع الوعد بأن جميع المراسلات محفوظة وستنشر في الإبّان.